نهر أم الربيع
الذاكرة والتاريخ

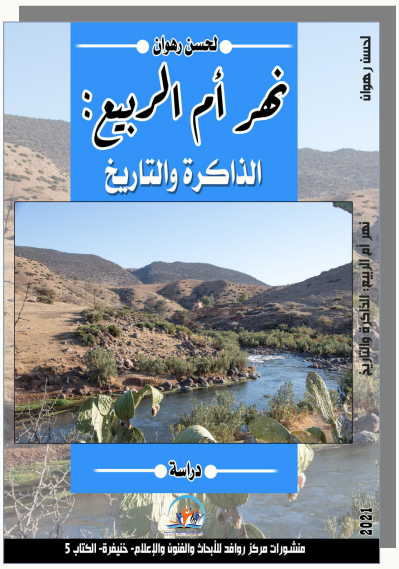

د. جواد التباعي
باحث في التاريخ والتراث
أكاديمية فاس مكناس
المملكة المغربية

بيانات الكتاب

المؤلف: لحسن رهوان
منشورات مركز روافد للأبحاث والفنون والإعلام بخنيفرة
عدد الصفحات: ١٧٥ صفحة

المطبعة: مطبعة بلال
الطبعة: الأولى. سنة النشر: ٢٠٢٢
مكان النشر: فاس، المغرب.

كلمات مفتاحية:
أنهار المغرب؛ التراث الثقافي؛ الذاكرة والتاريخ؛ المعالم الطبيعية؛ التاريخ الزياني

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.325811

مقدمة

صدر للباحث الزياني لحسن رهوان كتاب "**نهر أم الربيع الذاكرة والتاريخ**" عن مركز روافد للأبحاث والفنون والإعلام بخنيفرة، وهو الإصدار الخامس لهذا المركز، طبع مطبعة بلال بفاس بداية ٢٠٢٢. خرج الكتاب في حجم المتوسط ضم ١٧٥ صفحة. جاء غلافه معبراً عن موضوعه من خلال مشهد من عالية النهر تحت عنوان بارز "نهر أم الربيع: الذاكرة والتاريخ" بلون أزرق بزرقة مياه النهر. أما متنه فقد قُسم إلى خمس فصول مسبوقة بمقدمة ومذيلة بخاتمة، وتضمن الكتاب لائحة بيبليوغرافية موسعة وقدم لهذا العمل عبد الكريم جويطي أحد أعمدة الكتابة الروائية بالمغرب.

يطرح عنوان "أم الربيع الذاكرة والتاريخ" سؤال تقديم الذاكرة على التاريخ، رغم أن التاريخ هو أصل متن الكتاب والبارز فيه على غيره. وفي تقديمه للكتاب أشار الجويطي لأهمية الأنهار في ازدهار الحضارة الإنسانية، وذكر بمحاولات الإنسان لتطويعها بين زمني الأسطورة والتقنية، معتبراً الأنهار من مواضيع التاريخ الطويل[1].

في مدخل الكتاب أشار الباحث إلى دواعي التأليف، وأعتبر الكتابة في التاريخ المحلي مغامرة بالنظر للمحيط الثقافي العام للمجال المدروس، وندرة المصادر، وضعف البحث الأركيولوجي في الموضوع الذي اختاره. وذكر بالصعوبات التي تواجه الباحث في التاريخ المحلي الزياني، دون أن يغفل حجم والتهميش الذي عاناه مجال الدراسة (الأطلس المتوسط) في الإستُغرافيا المغربية

قديمًا وحديثًا، واعتبره في بعض الأحيان مُمنهجًا. وذلك لأنه لم يأت إلا في سياق الحديث عن الثورات، والحَرْكَاتِ المخزنية، والانتقال بين العواصم والقواسم مع استثناءات كان أبرزها صاحب "مفاخر البربر" الذي شذ عن القاعدة، وحاول إبراز غنى الموروث الثقافي للنهر. وختم الباحث مدخله ببسط خطة بحته ودعوة الباحثين الغيورين للتعمق في الموضوع[٢].

الفصل الأول: نهر أم الربيع في التسمية[٣]

١. أم الربيع في الكتابات الإغريقية واللاتينية

يشير المؤلف إلى أن النهر ورد في الكتابات القديمة بتسميات متعددة، فذكر برحلة القرطاجي حانون وأعتبره أول من تحدث عن هذا النهر باسم "أسانا"، ويذكر بورود اسم النهر أيضًا عند سكيلاكس (نهاية ٦ وبداية ٥ ق.م)، وعند بلينوس الشيخ تحت مسمى "اناتيس". وانتيخولي" عند بطليموس. ويواصل المؤلف تتبع التسميات القديمة للنهر بالإشارة إلى أن صولان بوادي نعته بـ "اناتيس" وحدد موقعه على بعد ١٥. ميلاً من سلا وأكد ملوحة مياهه. ويخلص المؤلف إلى أن "أسانا" و "أناتيس" هي أسماء النهر القديمة الأكثر شهرة، ويرجح الاسم الثاني بناء على دراسات متعددة في الموضوع.

٢. أم الربيع في الكتابات العربية

يغوص الكاتب في مسألة تعدد أسماء النهر فيذكر "وانْسِيفْنْ" و "وَاسِيفنْ" و "مْ رْبِيعْ" و "أمْ الربَيعْ". وهكذا يبدأ بالقول إن **البكري** (ق١١م م/٥هـ) يسميه "**واد وانسيفن الذي يجري إلى بلاد برغواطة**"[٤]، ويحدد موقعه شالة تحت الرباط في البحر المحيط[٥]. ويرصد المؤلف تضاربًا في معلومات البكري الذي يجعل حصن داي (بني ملال الحالية) منبع وعالية وادي أم الربيع مرة، يعود ليقول أنه: يمتد من إلى وادي دَرنَة نهر كبير يقع في نهر وانسيفن في موضع آخر. ويرجع المؤلف تقصير البكري هذا لاعتماده على روايات ومعطيات مكتبية دون أن يزور المنطقة. ينتقل بنا صاحب الكتاب إلى وصف الشريف الإدريسي (ق٥٦/ ١٢م) للنهر، والذي يرجع أصل الكلمة إلى **قرية "أم الربيع" على واد خرار يُجاز بالمراكب، ويصف أهلها بأنهم أصحاب مواشٍ وجمال والغالب عليهم الفروسية**"[٦]. وخلال نفس القرن يسميه الزهري (ق٥٦/ ١٢م) أم الربيع، ويتحدث بوضوح عن منبعه بين فاس وقلعة بن توالى ومعدن غوان(عوام) أو وركناس. ويعتبره في موقع أخر "**من أبرز الأنهار المشهورة التي تدخلها المراكب المتوسطة**"[٧].

أما صاحب الاستبصار (ق٥٦/ ١٢م) الذي جال وصال المنطقة فيؤكد أن وانْسِيفنْ هو أم الربيع، ويحدد منبعه بدقة. وهو أمر يدل على انتشار الاسمين معًا (وانسيفن وأم الربيع) خلال القرن (٥٧/ ١٣م)، ويضيف أن عرضه نحو ٢٠ شبرا (عرض قليل عند العالية حتى مْزِضْ إلفَان[٨]). يسميه عبد الواحد المراكشي في المعجب "وانسيفن و"أم الربيع"، ويفك شفرة التسميتين بالقول بأن النهر يسمى أم الربيع، ومنبعه يسمى وانسيفن. أما ابن خلدون (ق ٥٨/١٤م) فيسميه "أم الربيع" ويعتبره أحد أهم أنهار مملكة فاس يصعب عبوره خلال فترة التساقطات لاتساعه[٩]، بينما يؤكد صاحب الروض المعطار (٥٩/١٥م) أن وانسيفن هو أم الربيع[١٠]. يطلق عليه الحسن الوزان (بداية ق ١٦م) "أم الربيع" ويحدد منبعه بدقة "**بين حدود بلاد تادلا وفاس ويجري عبر سهول أدخسان ويمر بين دكالة وتامسنا إلى أن يصب في المحيط بأزمور يصعب قطعه خلال الفصل المطير إلا بمراكب على قرب منفوخة**". اتخذها سكان المناطق المجاورة حرفة. ونسجل في هذا المحور إخلالا نسبيا بالتتبع الكرونولجي حيث يعود المؤلف من تسميات القرن السادس عشر الميلادي إلى القرن السابع الهجري (المعجب) ثم إلى القرن السادس الهجري (الاستبصار) ثم الروض المعطار (ق ٥٩/ ١٥م).

٣. أم الربيع في الكتابات الغربية

يختار الباحث من الكتابات الغربية التي تناولت نهر أم الربيع دراسة مارمول كاربخال (نهاية القرن ١٦م) الذي يؤكد أن النهر كان يعرف قبالة أزمور باسم "**كوفة**". ومع بداية الرحلات الاستكشافية تمهيدا لفرض الحماية على المغرب، وتقدم الجغرافيا والعلوم المساعدة. يؤكد شارل دوفوكو عند عبوره للوادي بين تادلا وبني ملال في ١٩ شتنبر ١٨٨٣ على نقطة مهمة جدًا وهي أن به "**ماءً صافيًا وصالحًا للاستهلاك ولو أن مذاقه ملح بعض الشيء**". ويبدي المؤلف تخوفًا من النزعة الكولونيالية في كتابات دوفوكو، وهو في نظرنا تخوف لا مبرر له بعد ست عقود من الاستقلال، وانتهاء موجة الكتابة الموجهة لدحض الأطروحات الاستعمارية، خاصة عندما يتعلق الأمر

بالوصف الجغرافي الذي برع فيه دوفوكو أكثر من عدد كبير من جغارفة اليوم.

في خلاصة مناقشته للتسميات التي أطلقت على النهر عبر التاريخ، يؤكد الكاتب أن التسمية اختلفت من قرن لأخر. ويستبعد الأسماء القديمة للإغريق والرومان، ويرجح التسمية العربية للنهر استنادا إلى ما جاء في مصادر المرحلة. ويشدد على أن التسمية اختلفت من مقطع لأخر من النهر، لكن الأكثر استعمالاً كانت هي "وانْسِيفنْ". لنخلص معه إلى أن "وانسيفن" أطلقت كثيرا الجزء الأعلى من النهر، وسمي الجزء الثاني (انطلاقاً من مجراه الأوسط بتادلا) "أم الربيع" في مرحلة متأخرة، مع الاستقرار العربي على ضفتيه خاصة تامسنا ودكالة.

في نقدنا لهذا الجزء نرى أنه من الصعب إطلاق اسم عربي على نهر ينبع من منطقة أمازيغية. ونرجح أن تسمية "أم الربيع" التي تحدث عنها البكري خضعت لتحوير كتابي لصعوبة فهم غير الأمازيغ لبعض مخارج الحروف المحلية. وبالمقابل سيشق على القسم العربي من أم الربيع نطق كلمة لن يجيدها إلا أصحابها، لذلك كانت للنهر تسميات عدة حسب المقاطع. وتزكي هذا القول تسمية "كوفة" التي كانت تطلق على النهر عند مدينة أزمور، والذي يجعلنا نرجح كلامه هو تحديد مساره من المنبع إلى المصب بدقة. لكنا نعيب على المؤلف الاستناد لكتابات لا تتجاوز بداية القرن العشرين الميلادي لترجيح الاسم العربي "أم الربيع". نذكر منها كتابات "إدموند دوتي" الذي نسب تسمية النهر لكثرة ربيع، وأحمد المنصوري الذي أشار إلى استدل بوجود أسماء عربية بخنيفرة خلال القرنين الأخيرين على غرار بَامُوسىَ، وجبْلْ عْمِيرَةْ، وكهف النسور للدفاع عن التسمية العربية للنهر. واستند الباحث أيضًا للباحث المعاصر مصطفى عربوش" الذي يقول أن "مْربيع" معناها صاحب الخير العميم وأم الربيع، ربما لضعف درايته بمجال ولغة أهل المنبع.

كانت منطقة المنابع تعرف ب "وانسيفن" أو بويسافن، اسيف ن ايسافن[١١]" مما يدل على أهميته التاريخية وقدم مكانته، لكون المنطقة أمازيغية. وحتى لو سلمنا بأن أصل التسمية هو مُ ربيع، فإننا نعتقد أن الأصل فيها مُ ربيع: أي منطقة "اجتماع القبائل" بصفة دورية عند رأس النهر، حيث الماء والخضرة والوجه الحسن التي يتطلبها فض النزاعات القبيلة خلال فصل الربيع. وهو الأمر الذي تجسده احتفالات "تيفسا"[١٢] و"أجموع إعريمن[١٣]" ببعض قبائل المنطقة حتى اليوم. ولا حاجة للتذكير أن "تادلا" وأزمور" نفسيهما كلمتان أمازيغيتان، لذلك نعتقد أن أهل المنبع أحق بالتسمية من غيرهم. والنقطة الثانية التي تستحق النقاش في هذا الفصل عند الحسن الوزان، وسجلها دوفوكو فيما بعد هي طريقة عبور النهر في سافلة النهر بحزم من القصب مرفوعة على جلود منفوخة. وهي إشارة واضحة لغياب جسور قادرة على أداء هذا الدور، في الوقت الذي تميزت فيه عالية النهر بكثرة القناطر التي شيدت في مراحل تاريخية مختلفة.

الفصل الثاني: نهر أم الربيع: تاريخ مجال[١٤]

يستهل الكاتب هذا الفصل بالتأكيد على أن "أم الربيع"، أحد المعالم الطبيعية التي تَهيكَل حولها المجال الجغرافي ومجالات النفوذ، ولعل هذا ما جعل السيطرة عليه أولوية للدول المتعاقبة. كما ساهم النهر بدور فعال في تنشيط الدورة الاقتصادية بالبلاد، وانتعشت على ضفافه الحياة الفكرية والدينية (أساطير، روايات، مزارات دينية، طقوس خرافية...)

١. الدور المجالي:

حصره الباحث في أربع أدوار رئيسة:

١.١. تحديد الأقاليم: إذ شكل أم الربيع دومًا الحد الفاصل بين القبائل والأقاليم المغربية. ويورد الباحث نموذجا للحسن الوزان يجعل بموجبه النهر حدًا غربيا لدكالة، ومنبعه هو الحد الشمالي لبلاد زيان، وهي أيضا الحد الجنوبي لمملكة فاس والحد الغربي لتامسنا.

١.٢. حركية القبائل واستقرارها: كانت خوانقه خاصة في عالية النهر تحد من تحركات القبائل، وشكل وسطه ومصبه حدا طبيعيا بين قبائل دكالة والشاوية والسراغنة.

١.٣. الامتداد المجالي للكيانات السياسية: حيث شكل النهر الحد الطبيعي بين السعدين والوطاسيين، وبين الدلائيين والإمارات الأخرى.

١.٤. نشأة التجمعات البشرية: نشأت على ضفاف النهر مدن وتجمعات سكانية كخنيفرة، وتادلا، وأزمور بالإضافة إلى تجمعات صغرت أو تقاوم عاديات الزمن أو اندثرت ومنها:

قرية أم الربيع: قرية مندرسة وردت في مصادر مختلفة ك "نزهة المشتاق" الذي أكد أن بها اسمان وألبان، وحنطة رخيصة، ومزارع قطاني وقطن وكمون، وبجوارها الطرفاء. فيها غابة كثيرة الأسد، لا يهابها أهل المنطقة الذين تمهروا في مقاتلتها بغير سلاح، خاصة بشوك السدرة، والسكاكين. إثنيا كانت القرية تجمع أخلاط من البربر، رهونة، زناتة، وتامسنا، وبرغواطة، ومطماطة، وركادة والغالب على سكانها الفروسية.

السْبِيتْ: يُرجح المؤلف أنها "قصبة بُولْعوَانْ" الحالية، استنادا لما دونه عنها مارمول كاربخال والحسن الوزان بقولهما: أنها محاطة بأسوار وأبراج عتيقة، والمقصود بها قصبة بولعوان.

تمرَّاكشتْ: يقول عنها الوزان أنها مدينة صغيرة بدكالة، وينسبها الوزان إلى يوسف بن تاشفين ويظن الشياظمي أنها مراكش القديمة.

تَركَا: يحدد الباحث موقعها بناء على مصادره على بعد ٣٥ كلم عن أزمور، على الضفة اليمنى لأم الربيع، كانت وفقا للوزان تضم ٣٠٠ كانون، وأصبحت في عهده خربة.

بُولعْوانْ: تحيط بها أسوار وأبراج قديمة، تضم أكثر من ٥٠٠ دار. تعرضت للغزو البرتغالي، وشيد بها المولى إسماعيل قصبته الشهيرة كواحدة من القصبات المجددة على طول النهر.

تِكِيتْ: إحدى اهم مراكز تامسنا، كانت كثرة السكان وفي الطريق نحو الصحراء. خربت خلال الحروب البرغواطية.

خنيفرة: يستهل الباحث هذا الجزء من عمله بالتذكير بمعظم الروايات الطوبونيمية المؤصلة لاسم خنيفرة كخنفر، وموخنفور، وعلاقتها ب المصارعة (تاموغزيل). ويرجح تسمية "خنك فارا" ويقصد به يعني مضيق "فارًّا" الذي يخترق المدينة من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي. ويعرج على قصة تشييد المدينة، ورحلة ايت حركات من البرج إلى خنيفرة، ولم يغفل قضية طرد ايت عفي من ايت بوحدو منها نحو مستقراتهم الحالية حول قرية كهف النسور. ويتطرق الباحث أيضا لقضية تصميم موحى اوحمو للمدينة (القصبة، القنطرة، منازل علية القوم، دار القاضي، قضية نظافة المدينة...)، وخلص إلى أن المدينة شيدت في موقع حصين على نهر جارٍ باعتبار الماء شرط أساسي للاستقرار. ويورد نقلا عن المعمر فرانسوا بيرجي أن المعمرين هم الذين شيدوا الأبراج على كل ممرات أم الربيع بين ثاقا إيشيعان وزاوية ايت إسحاق، لمنع كل اتصال لزيان بالسهول. وختم الباحث هذا المبحث بالتأكيد على أن إعفاء سوق خنيفرة من الرسوم الجمركية دليل على الرخاء. لكننا نرجح أن الأمر لا يتعلق برخاء اقتصادي بقدر ما هو دعم كولونيالي لسوق ناشئة قرب مقراتهم الإدارية.

قصبة تادلا: يستهل الباحث دراستها بالإشارة إلى أن أصل كلمة تادلا هي الحزمة من السنابل أو غيرها الزرع. تميزت بتحصينات مهمة مع غياب الحدائق، وهي الإشارة التي التقطها القائمون على الشأن المحلي عكس مدن المنبع التي تعد فيها الحدائق على رؤوس الأصابع ومنها حدائق إسمنتية.

أزمور: على مصب أم الربيع، وموطن سمك الشابل، النعمة التي جرت على المدينة وبال الغزو الايبيري، يؤكد كاربخال أن خمسها من اليهود نهاية القرن السادس عشر الميلادي.

٢. الدور الاقتصادي:

يستهل الباحث هذا المبحث بالتأكيد على أن ضفاف أم الربيع كانت موطن الخيول، والأغنام، والنباتات والعقاقير، وخشب الأرز، والثروة السمكية. وهو أيضا مصدر أساسي للماء الشروب للإنسان، ونقاط الماء للمواشي. ووسيلة لتسهيل المواصلات.

يتحدث الباحث **خيرات النهر السمكية** الهائلة خاصة سمك الشابل عند المصب، والتي توفر المذاق واللذة المطلوبين والذهنيات الكثيرة حتى إن نقودا قديمة تحتوي على صورة لحوات. لكننا نسجل إغفال الباحث للحديث عن الثروة السمكية عند المنبع. ينتقل بعدها للحديث عن **الماء الشروب، حيث يشير نقلا** عن المصادر أنه لا ماء لأبي الجعد وتادلا غير أم الربيع. ويعرج الكاتب على مسألة تلوث النهر، حيث يؤكد أنه ففي بعض الفترات "كان الناس لا يشربون من وادي أم الربيع من كثر الجيف وكذلك الخيل". يشير بعدها لدور النهر في **تنشيط الحياة الفلاحية** بتادلا وأبي الجعد... وينفى عدم صلاحيته للسقي خاصة قبل مصب وادي صرو، وعند زاوية تامسكورت حيث يمر النهر ضائعًا ولا يطعم جائعًا.

يشكل النهر واحدا من أهم **طرق المواصلات** الرابطة بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب. ويورد نماذج لأهم مشاريعه كمشرع بنعبو، مشرع الحمري بني مسكين، مشرع بولعوان ببني مسكين، لكن الباحث أغفل مشرع إيجْ قرب زاوية تامسكورت على بعد أقل من ٦ كلم جنوب خنيفرة.

تطرق المؤلف لقنطرة مدينة خنيفرة فذكر أنها حسنية وأورد بعض ذكر طقوس الانتجاع المرافقة للتنقل عبر القنطرة. والأقرب إلى الصواب أنها إسماعيلية بدلائل أثرية ومعمارية. ورجح أن يكون تشييد قنطرة خنيفرة قد تم في نفس عهد تشييد قنطرة البرج على بعد أقل من ١٠ كلم جنوبًا. وهو ما يدفعنا لطرح السؤال يحتاج إلى المزيد من البحث والتنقيب: **إذا كانت قنطرة خنيفرة شيدت في نفس زمن تشييد قنطرة البرج هل من المعقول أن تشيد على مسافة قصيرة؟**

يجيب الباحث بأن نزوح أيت حركات إلى خنيفرة كان بعد تراجع مداخيل الأولى ويرجح أن قنطرة خنيفرة لاحقة لقنطرة البرج. وأشار إلى توجد قناطر لم تولها المصادر التاريخية أهمية كبيرة وأهمها:

- قنطرة في عالية أم الربيع بين وانسيفن ومعدن عرام عليها لوح كبير.
- قناطر العهد السعدي: كقنطرة تادلا، وقنطرة لالة مسعودة.
- قناطر العهد الدلائي: أبرزها مرض الفان، أمسدل، تاحيزونت، وخلاطة التي تعرف عند الأهالي والمنتجعين وتبرز بشكل جلي أهمية الانتجاع عند الدلائيين.

كان أم الربيع أهم وسائل **نقل الأخشاب** نحو بلاد تادلا ومراكش، وذكر برواية المنصوري بخصوص تهريب الأرز نحو مراكش.

٣. الدور الديني:

بدأ الباحث بالإشارة إلى العلاقة الجدلية بين المزارات، والأزمات الاجتماعية، والسياسية صعودًا ونزولا. وينتقل إلى الحديث الاقتصادي الذي يبديه رجال الصلاح للمجتمع زمن الأزمة.

أ. أدب المناقب:

أكد أن انتشار الصلحاء وأدب المناقب على ضفاف أم الربيع جاء لملء الفراغ السياسي من خلال عدة نماذج أبرزها:

- قصة الأربعين دجالاً الذين حاولوا السيطرة على كنوز المصب بإغلاق عيون المنبع، إلا أنها عادت لتجرفهم. بينما نذر أربعون صالحًا أنفسهم لحماية العيون، وكلما توفي أحدهم دفن على إحدى ضفتيه وهي تفسير خرافي لانتشار الأولياء على ضفتي النهر.
- قصة رحال الكوش البودالي الذي شق النهر في تذكير بمعجزة موسى عليه السلام.
- كرامة جريان النهر بالزيت زمن بلقاسم العمري والد أبو عبيد الله محمد الشرقي شيخ مدينة أبي الجعد
- ثوبة لصوص على يد أبي حفص بعد محاولة سرقة ثيابه وهو في المسجد.
- وذكر برواية الإفراني عن قصة المجاهد العياشي الذي حاول قطع أم الربيع قرب مدينة البريجة (الجديدة الحالية) رغم فيضانه، فدعا الله واقتحم الوادي فوصل الماء ركب الخيالة بعدما كان لا يدرك له قعر في تذكير بمعجزة موسى مع فرعون.

ب. الزاوية الدلائية:

استهله المؤلف بالتذكير بسياق تأسيس الزاوية الدلائية، والفترة التاريخية التي تسيدت فيها المشهد الديني ثم السياسي بالمغرب. وتحدث عن الزوايا التي تفرعت عنها خاصة ربيبتها الزاوية العياشية بالأطلس الكبير الشرقي. وسرد مراحل الازدهار السياسي للزاوية بعد هزم قادتها لمحمد لشيخ السعدي في معركة واد بوعقبة على ضفة أم الربيع. وذكر بقضاء الدلائيين على حركة المجاهد العياشي بسلا، وهزم العلوييين، وربط علاقات مع الخارج بعد بناء عاصمة جديدة بالسهل (زاوية أيت إسحاق الحالية). وذكر بعوامل الانهيار، وتعدد الطامحين لتوحيد المغرب في ذات الوقت. غير أنه وجبت الإشارة هنا إلى أن معظم الباحثين يسمون المعركة التي هزم فيها الرشيد العلوي الدلائيين بمعركة بطن الرمان، إلا أن تعميق البحث في الأمر أكد لنا أن الأمر يتعلق بمعركة بورمان[١٥]. ووجب التذكير أيضا بدور أم الربيع في

تاريخ هذه الزاوية كمنطقة انتجاع، ودور الدلائيين في تشييد قناطر على طرق استراتيجية تعبر النهر.

ج ـ زاوية تامسكورت:

اعتبرها واحدة من أقدم فروع الزوايا الناصرية، أسسها محمد الكبير[١٦] بمنطقة عبور بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب. استفادت من موقعها الاستراتيجي كمعبر ضروري بين منتجعات زيان الشتوية بأزاغار، ومجالاتهم الجبلية الصيفية. وبرز دورها الكبير في التحكيم بين القبائل، وفض النزاعات على ضفتي أم الربيع بشكل اثأر ريبة المخزن المركزي[١٧]

د ـ مدشر أروكو:

مدشر على أحد أهم روافد النهر في موقع الاستراتيجي على طريق تجارة القوافل بين مكناس وتافيلالت. يقع قرب المعبر الوحيد على طريق مطروقة من طرف الناصريين، كما تدل على ذلك العديد من المراسلات، ونقل المولى إسماعيل لوالد أبي القاسم الزياني ليكون إمامه في المحلة ثم نقله إلى لمكناس سنة ١٦٨٧.

زاوية سيدي علي أمهاوش:

ذكر الباحث بأنها زاوية ناصرية تحولت إلى درقاوية، بدأت الطموحات السياسية للزاوية خلال أزمة الثلاثين سنة وبعدها. لكنها ظلت مهمشة في التاريخ الرسمي عدا ربطها بالفوضى حيث نعت أكنسوس والناصري زعمائها بالدجالين. أصبحت الزاوية في عهد أبي بكر أمهاوش واحدة من الزوايا الثلاث الأخطر التي أنتجتها الكتلة الصنهاجية إلى جانب حنصالة والدلاء، رغم محاولات المخزن تسخير سكان أزاغار لتطويع سكان الجبل. تعمد المولى سليمان (١٨٩٢-١٨٢٢م) إتلاف زروعهم سنة ١٨١٩ رغم طلب الصلح والصفح وذلك بعيد هزيمته في معركة زيان بأزرو[١٨] (أسر السلطان وقتل ابن أخيه). وعند تولي علي بن المكي الزعامة الروحية للزاوية إلتفت حوله القبائل في مواجهة محمد اوحمو الزياني، لكن هذه المواجهة خفت لمواجهة العدو الخارجي بعد ١٩١٨ بقيادة سيدي المكي خاصةً في معركة تازيزاوت الشهيرة سنة ١٩٣٢م.

الفصل الثالث: أم الربيع

تراث مائي يعيش حالة احتضار[١٩]

ذكر المؤلف بأن الأطلس المتوسط منبع معظم أنهار المغرب، وأم الربيع أكثر أنهار المغرب طولاً وصبيبا. يتجاوز طوله ٦٢٠ كلم من جبل حيان بزيان إلى لالة عيشة البحرية على شط المحيط الأطلسي قرب أزمور بدكالة.

ا ـ منابع أم الربيع:

يؤكد الباحث أن تعد أم الربيع صهريج المغرب لكثرة عيونها الكارستية وهي نوعان: عيون مالحة على الضفة اليسرى في اتجاه أجدير، وأخرى عذبة قادمة من مقعر "البقريت". وبتقدم جريان النهر تزداد روافده من المنبع إلى المصب وأهمها:

أ. واد سرو: تراجع صبيبه نتيجة الجفاف والسقي وضعف خزنه الكارستي. يتغذى من اشبُوكة، واد بُومزيل وأمركُو و واد أرُوكُو بالإضافة إلى العيون. يتميز بارتفاع الملوحة بسبب انتشار المواد الملحية بالطبقات الصخرية، وسرعة انصهارها حيث ينقل الوادي أزيد بين ٤٦ ألف و٢٦ الف طن من الأملاح سنويًا.

ب ـ واد إشبُوكة: أحد أهم روافد واد سرو ينبع من أيت بومزيل بأريغ، يتصل بماء جنان إمَّاس. وعندما يصل إلى منطقة شبوكة قبالة قلعة فازاز يسمى واد إشبوكة إلى أن يلتقي بواد سرو قرب الهري. يسمى بعده واد سرو الذي يصبح بدوره أم الربيع قرب زاوية آيت إسحاق الدلائية.

ج ـ واد العبيد: يبين الباحث أن الوادي يصل أعلى صبيبه عندما تبدأ الثلوج في الذوبان ربيعا، ويُعَدّ أكبر روافد أم الربيع . يورد المؤلف نقلاً عن مارمول كاربخال أنه سمي وادي العبيد نسية إلى الزنوج أو الرقيق بلغة أهل البلاد بينما يؤكد مؤرخ بزو المصطفى فرحات أن اسمه الأصلي "أسيف ن آيت سخمان" التي ينبع منها ويضيف الكاتب أن سخمان ربما تحريف لكلمة اسمخ أو أسمغ التي تعني العبد وهذا محط نقاش.

د ـ واد تاساوت والواد الأخضر: تساوت ج تيساوين أي الحواشي أو البطون باللغة المحلية، أما الثاني فيسمى الواد الأخضر لأنه ينساب وسط غطاء نباتي وأشجار زيتون دائمة الخضرة. يؤكد الباحث نقلاً عن الحسن الوزان أنهما

نهر واحد ينبعان من غُجدَامة، ولا تفصل بينهما أكثر من ثلاثة أميال. وهما معا من روافد واد العبيد.

و ـ واد درنة: بين أفزا وتافزا وسط قطع الصخرية بلغ عرضه ٢٥ م وعمقه ٧٠ سم.

في ختام هذا الفصل يدق الباحث ناقوس الأخطار التي تتهدد النهر، ويتعلق الأمر بتناسل السدود (أزيد من ١٤ سدًا)، والتزايد السكاني، وتراجع الموارد التي تهديد التوازن البيئي وخطر انقراض الكائنات الحية ومساهمة الجفاف ونهب الرمال في ارتفاع الملوحة. بالإضافة إلى أخطار أخرى أبرزها:

- المياه العادمة المنزلية خاصة بالمدن الكبرى كخنيفرة وتادلا، والإفراط في السقي والضخ والاستعمال المكثف للأسمدة الذي يهدد المياه السطحية والجوفية.
- سوء تدبير وإهمال معظم المواقع التاريخية على ضفتي النهر (باستثناء قصبة تادلة) بشكل يهددها بالاندثار. حيث تحول بعضها إلى أطلال، وحتى أغلب الترميمات تمت بطرق (كالقنطرة الإسماعيلية، تامسكورت، والقصبة الإسماعيلية...). وذلك في ضرب تام لتوصيات الايكومس بحماية وحماية التراث الثقافي للماء.
- كثرة الوحدات الصناعية حيث أحصى الباحث أزيد من ٦٠٠ مقاولة صناعية، معظمها معامل سكر، وحليب، ومعاصر زيتون، ومجازر، ومدابغ، ومناجم.
- وتعثر العديد من المشاريع وضعف مبادرات المجتمع المدني

جاءت الخاتمة قصيرة جدًا تطرق فيها الباحث لاغتيال الموروث الحضري بمنطقة عالية النهر، واعتبرها حبيسة التاريخ الاستراتيجي العريق رغم الموقع الاستراتيجي وتنوع الموارد. وغابت عنها التوصيات للجهات الفاعلة والمهتمة، لهذا نقدم بعضا منها:

- استثمار المؤهلات المائية لتزيل مخططات فلاحية نموذجية.
- دعوة فعاليات المجتمع المدني من أبناء المنطقة للترافع عن منطقتهم كل من موقعه ومجال تخصصه، لتصيح الصورة النمطية التي رسمها الإعلام العمومي عن المنطقة كواجهة فلكورية لا غير.
- ضرورة تهيئة منابع النهر وشلالها (الوحيد بالإقليم) وتخليصها من الأكواخ التي تشوه صورة المنطقة في ظل مقاربة تشاركية مع السكان المحليين توقف جعل سكان عالية النهر يمسكون بقرون بقرة ليحلبها غيرهم.
- الاهتمام بالموروث الثقافي للنهر وتكثيف الدراسات حول أهميته في ماضي وحاضر ومستقبل سكان ضفافه.
- ضرورة أخذ عالية النهر نصيبها من التنمية في إطار العدالة المجالية التي تنص عليها مختلف المواثيق والقوانين الوطنية وتفعيلا للجهوية المتقدمة لأننا نعتبر أن عالية النهر لم تأخذ من هذه الجهوية إلا الاسم لحد الآن.

خَاتِمَةٌ

عمومًا نجح الأستاذ لحسن رهوان في تحريك مياه الثقافة التاريخية الراكدة حول منابع وعالية أم الربيع. إلا أنه مطالب في طبعة ثانية من الكتاب بتوحيد طبعة مصادره، وطريقة التهميش، وتسميات المؤلفين وتجنب بعض أحكام القيمة. وبحكم معرفتي به عن قرب ألومه على عدم توظيف صور للمعالم التي تحدث عنها، خاصة أنه زار هذه المعالم مرات ومرات كعضو في جمعية لرياضات المشي، ويشتغل عضوًا بفريق بحث في التاريخ والتراث بمدرسة الإبداع الأدبي والفني، حيث أنجز ربورطاجات كثيرة في الموضوع. بالمقابل نجح الباحث إلى حد بعيد في توظيف الذاكرة في الكتابة التاريخية. أملنا أن يكون هذا العمل نبراسا ونقطة انطلاق لكتابات أخرى تنفض الغبار عن مجموعة من قضايا المنطقة في مختلف المجالات. ومتمنياتنا أن يمارس المثقف العضوي المحلي دوره الرئيس في إثارة الضجيج المعرفي حتى لا ينام المركز على جسد الهامش.

الاحالات المرجعية:

(١) رهوان لحسن، **أم الربيع الذاكرة والتاريخ**، منشورات مركز روافد للأبحاث والفنون والإعلام بخنيفرة، مطبعة بلال، فاس، ط١، ٢٠٢٢. ص ٥-٧.

(٢) رهوان لحسن، **أم الربيع الذاكرة والتاريخ**، ص ٩-١٩

(٣) رهوان لحسن، م.س، ص٢١-٤٨

(٤) البكري أبو عبيد عبد الله، **المسالك والممالك**، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيرت، ١٩٢٢، ج١، ص ٢٣٨

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص ٨٢٧

(٦) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، منشورات عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٩، ج١، ص ٢٣٧.

(٧) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٥٨

(٨) **مْزِضْ إلفَانْ (mzdilfan)** مركب اسمي محلي يعني "مطحنة الخنازير"، والراجح أن القنطرة استمدت اسمها من الخانق الصخري المسنن الذي شيدت عليه. يتراوح عرض النهر في بعض المقاطع بين نصف متر، ومتر واحد بسبب تعمق النهر في الصخور البركانية الحادة وسط أحراش تعج بالخنازير. لذلك يقصد عدد كبير منها هذا الأخدود النهري إما للشرب أو للعبور، فيسقط معظمها في النهر وتطحنه الصخور وقوة تيار النهر (التباعي جواد، **نماذج من التراث الثقافي ببلاد زيان من العصر الوسيط إلى الزمن الراهن: دراسة وتثمين**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ والتراث، كلية الآداب سايس، فاس، ٢٠٢٠-٢٠٢١، ص٢٥٤).

(٩) ابن خلدون عبد الرحمان، **تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨١، ج٦، ص ١٣٣.

(١٠) الحميري أبوعبد الله، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، مطابع دار السراج، ط٢، ١٩٨٠، ص ٦٠.

(١١) **أسيف ن إيسافن**: تسمية أمازيغية معناها نهر الأنهار. أي النهر الذي تصب فيه كل الروافد.

(١٢) **ثِيفسّا tifssa (الاحتفال بفصل الربيع)**: مهرجان ينظم في شهر مارس بأزاغار احتفالا بقدوم فصل الربيع، تدق خلاله الخيام في مكان محدد، وتتزين النساء، ويرتدي الرجال أفخم ثيابهم لتأدية وصلات في الفروسية، وتنطلق الأفراح وحفلات أحيدوس، وتنحر الذبائح. وينفصل كبار القبيلة عن الجمع للبث في المشاكل العالقة بين القبائل، خاصة تلك المتعلقة بطرق استغلال الأرض، مايزال هذا الاحتفال يقام بآيت سكوكو رغم طغيان الطابع الفلكلوري على فعالياته. (التباعي جواد، **نماذج من التراث الثقافي...**، م.س، ص ٣٤٦

(١٣) **أجْمُّوع إعْزِّيمن (تجمع الشبان)**: حفل تنصيب شيخ القبيلة الجديد ومساعديه. وهو تقليد ثقافي موغل في القدم بالمنطقة، لازال بعض الزيانيين يحيونه حتى اليوم. تجسده كل أطياف قبيلة آيت سيدي أحمد أو حمد من آيت سكُوكُو، وجاليتها بالخارج خلال شهر غشت من كل سنة، يؤكد استمرار تشبث أفراد القبيلة بتراثها وتقاليدها القانونية، ويضمن استمرار وتجديد رمزية مؤسسة "أمغار" باعتبارها نظاما سياسيا فعالا في تشجيع الشباب على تحمل المسؤولية، والانضباط لمنطق القبيلة وعاداتها. (التباعي جواد، **نماذج من التراث الثقافي...**، م.س، ص ٣٧٤)

(١٤) رهوان لحسن، **أم الربيع...**، ص ٤٩- ١٣٧.

(١٥) يحدد معظم المؤرخين موقع المعركة ببطن الرمان قرب "زاوية الشيخ" الحالية، لكن الأمر لا ينسجم وخط توحيد البلاد الذي اتخذه المولى الرشيد من الشمال نحو الجنوب إذ لا يعقل في نظرنا أن تأتي جيوش السلطان من فاس وتحارب جيوش الدلائيين ببطن الرمان جنوب الزاوية ثم تعود نحو الشمال لتحطيمها، وبعد بحث في طوبونيميا المنطقة اكتشفنا أن الأمر يتعلق بمنطقة بُورمان التي تحدث عنها ابن زيدان كمحطة في حملة الحسن الأول من مكناس في ١٥ رمضان١٣٠٥ لتأديب القبائل الثائرة على مشارف قصبة أدخسان (ابن زيدان عبد الرحمان، **الإتحاف...** م. س، ج٢، ص٢٩٢).

(١٦) هو محمد (الكبير) بناصر١١٢٦.١٠٤٦هـ/١٦٣٧-١٧١٣م. وقد لقب بالكبير لكونه أكبر بني أبيه محمد بناصر الدرعي مؤسس الزاوية الناصرية، ولد سنة ١٠٤٦هـ/ ١٦٣٧م. أخذ العلم عن والده، وعليه تخرّج، ثم شد الرحال إلى فاس للأخذ عن جماعة من علمائها كالإمام أبي الحسن علي الشهير بالمراكشي، أبي الحسن اليوسي، وأبي الحسن علي الدادسي. وصف بأنه "سريع الغضب، سريع الرّضى، مجاب الدّعوة". أصبح فقيهًا ومؤقتًا وأحاط نفسه بكرامات ظاهرة وخوارق باهرة كافية لتنال زاويته الرضى الخليفتي محمد بن عبد الله، **الدرر الجليلة في مناقب الخليفة**، دراسة وتحقيق أحمد عمالك، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط١، ٢٠١٤، ج١، ص ١٨١/ الناصري أحمد بن خالد، طلعة المشتري...، م. س، ص٣٠٢.

(١٧) تخوف المخزن الإسماعيلي من تكرار الدلائيين لتجربة السيطرة على الحكم، وتجسد هذا التخوف في تعمد خدم دار المَخْزَنْ على إجبار شيخ تامسكورت على زيارة القصر السلطاني، وتعمدوا المرور به أمام جناح قناجر القصر اختبارًا لقدرته على الصمود فيما عرف تاريخيا بحادثة القناجر(الخليفتي محمد بن عبد الله، م. س، ج١، ص ١٨٢، هامش٣).

(١٨) هناك معطيات تؤكد أن زيان كانوا في ركب امهيواش في معركة زيان وكانت منطقة القباب من أهم مناطق صنع تيمزين البارود المستعمل في المقاومة إلى جانب الكعيدة واستنزاف طاقة المستعمر.

(١٩) رهوان لحسن، **أم الربيع...**، ص ١٣٩-١٥٧.